



التاريخ ٣,٣
ولا شك أن إحدى السمات الرئيسية لمكتبة الأشرافية كونها مكتبة تعليمية تختلف عن المكتبات الخاصة التي كانت موجودة في المنازل (والتي كانت وظيفتها تنحصر في اهتمامات صاحبها): لهذا يمكن وصفها بأنها كانت مكتبة عامة. لذلك يجب النظر إليها من ضمن الصورة الأوسع لثقافة دمشق. وهذا يعني أنه من الضروري عدم تقييمها كجزء من اهتمامات طبقة علماء الدين حصراً، بل كمكتبة تعكس اهتمامات القراء الواسعة في مدينة كدمشق. ومن الطبيعي أن مستخدمي المكتبة كانوا من «العلماء» إلا أن النقطة المهمة أنها وجدت في مرحلة كانت فيها الكلمة المكتوبة تشهد توسعاً سريعاً حيث أن مجموعات إضافية من السكان كانوا يستخدمونها أيضاً. لذلك من الخطأ النظر إلى مكتبة الأشرافية باعتبارها مكتبة مؤسسة تعليمية محدودة القراء لأن نسبة القراءة والكتابة كانت عالية نسبياً في العالم الإسلامي الحضري وخاصة في مدينة كدمشق.

١٣	صحيح مسلم	حديث	٨٧٥/٢٦١	٨
١٤	منهاج البيان لابن جزلة	علم الصيدلة	١١٠٠/٤٩٣	٨
١٥	ديوان المتنبي	شعر	٩٥٥/٣٥٤	٨
١٦	مجمل ابن فارس	علم المعاجم	١٠٠٤/٣٩٥	٧
١٧	شعر المتلمس	شعر جاهلي	٩	٧
١٨	تنمة اليتيمة للشعالبي	شعر/أدب	١٠٣٨/٤٢٩	٦
١٩	نهج البلاغة للشريف الرضي	أقوال علي بن أبي طالب	١٠١٦/٤٠٦	٦
٢٠	غزال للشريف الرضي	شعر	١٠١٦/٤٠٦	٦
٢١	ديوان كُشاجم	شعر	٩٦١/٣٥٠	٦
٢٢	الصادق والباغم ابن هبارية	شعر/أدب	١١١٥/٥٠٩	٦
٢٣	ديوان ساردار	شعر	١٠٧٤/٤٦٥	٦

جدول (٣)

أكثر المؤلفين شعبية وقراءة

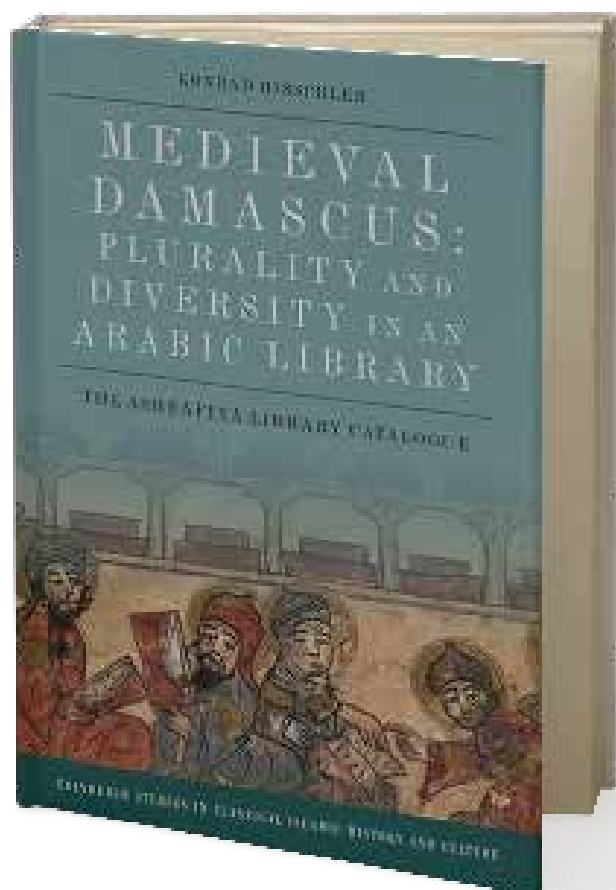
المؤلف	التاريخ	عدد الكتب الموجودة بالمكتبة
الثعالبي	١٠٣٨/٤٢٩	٤٦
الجاحظ	٩-٨٦٨/٢٥٥	٣١
الغزالي	١١١١/٥٠٥	٣٠
ابن دريد	٩٣٣/٣٢١	٢٤
ابن الجوزي	١٢٠٠/٥٩٧	٢٣
أبو العلاء المعري	١٠٥٨/٤٤٩	٢٠
الرازي	٩٢٥/٣١٣	١٨
الشريف الرضي	١٠١٦/٤٠٦	١٣
أبو الفتح ابن جني	١٠٠٢/٣٩٢	١٣
الأصمعي	٨٢٨/٢١٣	١٢
ابن سينا	١٠٣٧/٤٢٨	١١
أبو تمام	٨٤٥/٢٣١	١١
أبو حيان التوحيدي	١٠٢٣/٤١٤	١١
الكاتب التبريزي	١١٠٩/٥٠٢	١٠
الحاتمي	٩٩٨/٣٨٨	١٠
المتنبي	٩٥٥/٣٥٤	١٠
أبو الفرج الأصفهاني	٩٦٧/٣٥٦	٩
عبد الله ابن المعتز	٩٠٨/٢٩٦	٩
إبراهيم بن هلال الصابي	٩٩٤/٣٨٤	٩
ابن قتيبة	٩٣٣/٣٢١	٩

الكتاب: «دمشق في القرون الوسطى: التعدد والتنوع في مكتبة عربية».

- المؤلف: كونراد هيرشليير.

- الناشر: جامعة أدنبرة، ٢٠١٦، باللغة الإنجليزية.

* كاتب لبناني



وبحسب التاريخ الهجري، فإن القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي تقريباً) كان أكثر القرون إنتاجاً، يليه القرن الخامس ثم الثالث ثم السادس أي أن القرون التي تمتد من القرن الثالث حتى القرن السادس الهجري (من التاسع حتى الثاني عشر ميلادي) كانت أكثر الفترات إنتاجاً مكتوباً في العالم الإسلامي.

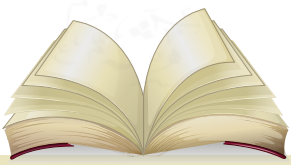
وبالمقارنة مع بعض المكتبات الإنجليزية في العصر الوسيط خاصة القرنين الحادي عشر والثاني عشر ميلادي، فإننا نجد أن مكتبة الأشرافية كانت تتفوق في نسبة الكتب العلمية والتاريخية والأدبية مع أن نسبة كتب العلوم الدينية كانت مرتفعة في الحالتين، إلا أنها مثلت نسبة أعلى في المكتبات الإنكليزية في تلك الفترة. وهذا يعني أن مكتبة الأشرافية كانت تحوي نسبة أعلى من الكتب الأدبية والعلمية في ذلك العصر.

جدول (٤)

نسبة الكتب المحفوظة بمكتبة بيتربورا وسط إنجلترا في العصر الوسيط

٧٣	اللاهوت
٤,٣	قواعد اللغة والمنطق
٢,٦	الفلسفة
٤,٥	القانون (المدني والكنسي)
٥,٥	الكلاسيكيات
٦,٨	العلوم والطب





«دمشق في القرون الوسطى: التعدد والتنوع في مكتبة عربية»..

لكونراد هيرشليير

محمود حدّاد *

يقول النقاد إنه يُمكننا استخلاص الكثير عن الناس من معرفة ما يقرأون، كما يُمكن للمؤرخين استخدام طريقة مماثلة للتحقيق في طبيعة المجتمعات المتعلمة القديمة. ومن الأمثلة البارزة العالم الإسلامي في العصور الوسطى. كان المجتمع الحضري الإسلامي بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الأكثر تعليماً في عصره؛ كانت معدلات معرفة القراءة والكتابة لديهم أعلى بكثير مما كانت عليه في أوروبا في العصور الوسطى، وقد عبّر المسلمون عن تقديرهم للكتب في مواقع عديدة؛ مثل: بيت الشعر للمتنبّي الذي يقول «خير جليس في الزمان كتاب». ومن أجل فهم حقيقي للمسلمين في العصور الوسطى، نريد أن نعرف عن الكتب التي كانوا يقرؤونها، وفي ذلك يقدم كتاب «دمشق في القرون الوسطى» للكاتب كونراد هيرشليير نظرة فريدة من نوعها.

والكتاب عبارة عن دراسة ممتعة وإن كانت ذات مصدر واسع، أو ما يسمى بدراسة تعتمد على مصدر واحد أو ما يسمى «تاريخاً جزئياً» واضحاً: بطله مكتبة دمشق من القرون الوسطى تسمى «مكتبة الأشرافية»، يستكشفها كونراد هيرشليير من خلال فهرس مقتنياتها، كما كتبت من قبل القائم على المكتبة مجهول الهوية، ربما في أواخر القرن الثالث عشر. كان ذلك العصر عصر صلاح الدين الأيوبي وفتوحات الصليبيين والمغول، لذلك قد تبدو كتابة دراسة من ٥٠٠ صفحة عن مكتبة واحدة (لم تعد موجودة الآن، إضافة إلى كونها مكتبة متواضعة) غريبة بعض الشيء. ولكن الأهمية الفائقة للكتب بالنسبة للدمشقيين في القرون للوسطى، إضافة إلى الفكر الثاقب لهيرشليير ساعد في جلاء الغموض عن الموضوع حين يستنبط مراجع قيمة من التفاصيل حول المجتمع الإسلامي في القرون الوسطى.

جدول (١)

النسبة	عدد النسخ	الكتاب	التسلسل	نسبة الكتب المحفوظة في المكتبة الأشرافية بحسب مواضيعها
١١,٥%	١١٥	العلوم النقلية خاصة القرآن والحديث	١	
٧,٥%	٧٨	العلوم النقلية خاصة الحديث والخطب الدينية	٢	
٤%	٣٩	العلوم النقلية خاصة الفقه	٣	
٦,٥%	٦٧	العلوم اللغوية خاصة قواعد اللغة	٤	
٤٣,٥%	٣٧	العلوم اللغوية خاصة التاريخ	٥	
١١%	١١٢	الشعر خاصة الجاهلي والأدب الإسلامي المبكر	٦	
٤,٥%	٤٦	الأدب	٧	
٩,٥%	٩٧	الأدب	٨	
٤,٥%	٤٧	العلوم العقلية خاصة الفلك وتفسير الأحلام	٩	
٧,٥%	٧٨	العلوم العقلية خاصة الطب والصيدلة	١٠	
٢%	١٨	الشعر خاصة العباسي المتأخر وما تلاه	١١	
٨%	٨٣	الشعر خاصة (العباسي المتأخر وما تلاه) والصلاة	١٢	
٨,٥%	٨٧	الشعر خاصة المقتطفات	١٣	
٠,٣%	٠٣	الأدب (في فهرس المبني الملحق بالمكتبة)	١٤	
١١%	١١٢	الأدب، الشعر وشرح الشعر	١٥	

جدول (٢)

أكثر الكتب قراءة بحسب عدد نسخها

عدد النسخ	التاريخ	الموضوع	المؤلف	التسلسل
١٥	٩	شعر جاهلي	الشعر سلامة بن جندل	١
١٥	١١٢٢/٥١٦	أدب	مقامات الحريري	٢
١٢	٨١٥/٢٠٠	شعر	ديوان أبو نواس	٣
١٢	٩	شعر	الموج بن الزيمان	٤
١٢	١٠٣٨/٤٢٢	علم المعاجم	فقه اللغة للثعالبي	٥
١١	١٠٦٦/٤٥٨	الطب	تقاويم الصحة لابن بطلان	٦
١٠	١٠٨١/٤٧٣	شعر	ديوان ابن حيوس	٧
١٠	٨٤٥/٢٣١	شعر	الحماسة لأبو تمام	٨
١٠	٩٧٣/٣٦٢	شعر	ديوان ابن هاني	٩
٩	١٠٣٧/٤٢٨	شعر	ديوان مهيار	١٠
٩	٨٩٧/٢٨٤	شعر	ديوان البحترى	١١
٨	١٠٥٨/٤٤٩	شعر	سقط الزند للمعري	١٢

يحتوي فهرس مكتبة الأشرافية الذي كتب في ٦٧٠هـ/١٢٧٠م. على حوالي ٢٢٠٠ كتاباً مقدماً من حاكم دمشق المملوكي الملك الأشرف، الذي ترك المكتبة كإرث بعد موته في ١٢٣٧ من أجل الاستخدام العام واقتراض الكتب في ناحية علمية من نواحي دمشق ما بين القلعة والجامع الأموي. والفهرس مميز جداً بسبب بقائه حتى اليوم، إذ من بين مئات من المكتبات القديمة في دمشق والقاهرة وبغداد وأماكن أخرى لم يبق سوى فهرسين اثنين للكتب. ويعتبر فهرس كتب «مكتبة الأشرافية» الأقدم والوحيد المتوفر للفترة ما قبل الفترة العثمانية، ويتوفر الفهرس الثاني في مكتبة جامع القيروان في تونس، والذي يشمل ١٢٥ كتاباً فقط ومؤرخاً في ٦٩٣هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م.

ومن خلال الترجمة الدقيقة للجدول والمؤشرات الهندسية والأدلة النصية من التاريخ المعاصر، وبمساعدة أربعة رسوم توضيحية غامضة لمكتبات من القرون الوسطى في مخطوطات عربية مزخرفة أخرى، يأخذنا كتاب هيرشليير خطوة إلى الوراء من حدود الصليبيين والمغول إلى الهدوء في باحة مكتبة الأشرافية؛ حيث الكتب المنظمة على رفوفها بطريقة مبتكرة. تكشف الجهود التي بذلها هيرشليير في هذا الكتاب نطاق المجموعة التي تحتويها المكتبة والتنوع الكبير في الأنواع الأدبية والعلمية الموجودة فيها والنظام الذي استخدمه القائم على المكتبة في تنظيم العناوين المتعددة لتسهيل إيجادها.

إن مجموع النتائج التي توصل إليها هيرشليير تفتح الباب على مجموعة واسعة من الأسئلة. ماذا كانت وظيفة العقيدة والتعليم والمدرسة؟ ماذا كان يعني أن تكون حاكماً وإماماً ومفكراً أو مجرد قارئ في دمشق في زمن كانت فيه مركزاً ثقافياً بارزاً؟ وماذا كانت تعني بالنسبة لهؤلاء الدمشقيين المعرفة و«الكلاسيكيات» والأسس الفكرية لحضارتهم الإسلامية في القرون الوسطى؟ تتجنب مقاربة هيرشليير التاريخية الدقيقة الوصول إلى استنتاجات واسعة لصالح التركيز على المكتبة قيد الدراسة. كما أن هذا الكتاب ليس مقدمة عامة للحضارة الإسلامية في عصر الصليبيين. بل إن هدفه اختبار التعميمات التقليدية والتشكيك بالروايات المنقولة، مستكشفاً آفاقاً جديدة بإعطاء الأهمية لجدول المكتبة الذي يشكل وثيقة خالية من القصص السردية ومن التحيز ومن أجندة التاريخ التقليدي.

ويُقدّم العرض الشامل للشعر ما قبل الإسلام في المكتبة وجهات نظر أخرى لفهم تقدير الشعر؛ فهل كانت الأشعار مجمعة لأسباب فيولوجية متعلقة بفقه اللغة؟ وهل كانت متعلقة بالتعليم الديني؟ وهل كان المسلمون الحضري يقدرون تقاليد ما قبل الإسلام بشكل أوسع مما كان يُعتقد؟ تضيف مقتنيات المكتبة من الكتب الدينية إلى جانب العناوين المختلفة الأخرى دفعاً متجدداً لتعديل النماذج القديمة التي تقول بأن الفقهاء الدينيين «التقليديين» كانوا بعيدين جداً عن الأدباء الآخرين. وتظهر البيانات أيضاً إنتاجاً موضعياً جيداً للمعرفة محفزة أسئلة جديدة حول العمل الفعلي للمجتمع الثقافي العربي العام.

ويُنصح هؤلاء الذين يسعون للتعرف على الثقافة الأدبية الإسلامية في القرون الوسطى للبدء بكتاب هيرشليير السابق «الكلمة المكتوبة في الأراضي العربية في القرون الوسطى» (٢٠١١م). وسيصرف علماء الأدب العربي وقتاً طويلاً في تحليل كتاب «دمشق في العصور الوسطى». أما من وجهة نظر أوسع، فإن هذا الكتاب سيسمح لنا أخيراً بمعرفة أنواع الناس الذين كانوا يعتبرون دمشق مدينتهم لأن مكتباتها كانت موزعة توزيعاً جغرافياً متباعداً.

